وحـــــدة الوجود

للأســـتاذ نقولا الحداد

هذا الموضوع طُرح على بساط البحث في هـذه المجلة منذ أكثر من سنة ، وتناقش فيه بعض الكتاب وتشعبت آراؤهم فيه في نواح مختلفة ، وما استقرت على نظرية واحدة . واليوم عاد الأستاذ عبد العزيز محمد الزكي يبسطه ثانية عارضاً فيه نظرية طاغور الهندوكي . وهي على حد قوله حجر الزاوية في الديانة الهندوكية كالتوحيد في الإسلام (والنصرانية أيضاً) .

وقد أفاض الأستاذ عبد العزيز في الموضوع في ستة أعمدة من المجلة ، ولكنه بكل أسف لم يعرفنا المقصود من « وحدة الوجود » . ومعظم ما ورد في مقاله مبهم قلما يستقر الذهن فيه على معنى .

والذي فهمناه من الوجود أن للفلاسفة فيه قولين : وحدانية الوجود Uoism وثنائية الوجود Duabism . أما وحدانية الوجود فقد وضحت في فلسفة سبينوزا وخواها أن الكون كلٌّ واحدٌ ، وإن كان مكوناً من أجزاء ، وأنه يشمل الله ، أو بالأحرى إن الله يشمله . وبحسب هذه الفلسفة يكون الله موجوداً في كل جزء من الكون ، أو أن كل جزء من الكون يعبر عن الله . وبهذا الاعتبار فالله موجود في كل مكان .

وكذلك العقل الذي يدرك الكون (عقل الله مثلاً وعقل الإنسان المنبثق من عقل الله بحسب فلسفة المطران وكلي) هو جزء من الكون لا ينفصل عنه والكون لا يوجد بدونه ، فإذا لم يكن العقل موجوداً فالكون لا وجود له ، وإن زعمنا أن الكون موجود على كل حال ، فبأي عقل يوجد ؟ وأي عقل يدركه ؟ ما لا يوجد في الإدراك ، أو في عقل مدرك ، فلا وجود له

أما ثنائية الوجود ، فقد وضحت في معظم فلسفة الفلاسفة ، وهي أن الكون موجود منفصلا عن الله وعن العقل الذي يدركه ؛ يعني أن الكون مرتبتان أي Two Catigorys : الكون المادي والكون العقلي ، والمقصود بالكون العقلي الله وما انبثق منه من العقول . وبهذا المعنى يكون الله ذاتية Entits قائمة بذاتها مستقلة عن الكون المادي ، وإنما هو بحسب رأي اللاهوتيين حالٌّ في كل ذرة من مواد الكون المادي ، ولكنه ليس منه البتة

فإذاً للوجود كونان : كون مادي وكون عقلي أو روحي ، وهذا ليس من ذاك بل هو يدركه . ومعظم الفلاسفة ثنائيون يعتقدون بثنائية الوجود . ولا أدري أي النظريتين تتفق مع طاغور والديانة الهندوكية ، وكذلك لا أرى أي النظريتين توافق النصرانية والإسلام . إن هذا يتوقف على ماهية الله . والله في اللاهوت المسيحي « روح (لا مادة) أزلي (وأبدي سرمدي) خالق كل شيء (من العدم) وقادر على كل شيء ، وموجود في كل مكان وكل زمان ، وعالم بكل شيء » . وأظن هذا التعريف مقبول في الإسلام . وبحسب هذا التعريف يوافق الرأي القائل الإسلام والنصرانية ، لأن الوحدانية تستلزم أن يكون الله خاضعاً للادراك البشري . أعني يستطيع العقل الإنساني أن يبحث فيه ويحلله ، كما يبحث في الذرة ويحللها ، ويفهم مقاصده من غير وحي وإلهام . وهذا لا يوافق الإسلام ولا النصرانية .

وأما كيفية مطابقة « الوحدة » للعقيدة الهندوكية فلم نفهمها جيداً من بحث الأستاذ الزكي واقتباسه نظريات طاغور . فمثلا لا نفهم قوله : « إن الله حينما امتلأ بالسرور فاضت منه الخليقة ، فالكون عند طاغور هي الصورة التي يتجلى فيها سرور الله ، الخ »

هذا كلام يحتاج إلى تفسير مستفيض إن كان تفسيره ممكناً . ثم قوله : « إن الإنسان لن يحصل على كماله الروحي إلا عندما يتلاشى شعوره بذاتيته ويدمجه في كل ما حوله من كائنات . وبغير ذلك لن يدرك أحد حقيقة وحدة الوجود » . كيف ذلك ؟

وهناك فقرات كثيرة من هذا الطراز لا نفهمها . عذراً يا أستاذ !

وقد اتفق بطاركة الفلسفة الأولون — سقراط وأفلاطون وأرسطو — على أن الله موجود مع الكون السرمدي منذ وجد هذا الكون (إن كان لوجوده بداية) ، ولكنه لم يخلقه وإنما هو يديره .

هذه العقيدة أقرب إلى المعقول من غيرها ، وتطابق نظرية ثنائية الوجود إذا اعتبرنا الله مجموعة النواميس الطبيعية وعلى رأسها ناموس الجاذبية ، فإما أن تكون الجاذبية هي الله نفسه ، أو أن الله وراءها ممسكها بيده ويدير بها عوالم الكون ، لأنه